القمــة العاشــرة

ونموذج قضية الصحراء

لو نظرنا إلى معظم بلادنا الإسلامية بين المحيط الهادي والمحيط الأطلسي ، لوجدنا ظاهرة جديرة بالاهتمام .. فقد كانت توحدها في عهد الاستعمار قضية مشتركة هي قضية التحرر من الاستعمار ، وأصبحت تمزقها بعد انـــسحاب الاستعمار ألف قضية وقضية ، تعزل كل بلد عن الآخر ، وتضرب كل بلد بالآخر ، بل قد تفرق أهل البلد الواحـــد على مختلف المستويات

ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن عهد الاستعمار أفضل من عهد ما بعد الاستعمار ، ولكن .. هل لنا أن نسمي العهد الجديد (عهد الاستقلال) ؟ ..

ورافقت هذه الظاهرة ظاهرةٌ أخرى سجلها التاريخ ، وهي أن (القوميات) بفكرها ورجالها ، وبغضّ النظر عـــن حقيقة القوة التي حركت رجال الجهاد للاستقلال من قبل .. هي التي احتلت مكان الصدارة بعد خـــروج الجيـــوش الاستعمارية ، ابتداء بالقومية الطورانية ، وانتهاء بما يُنادى به اليوم من قومية كردية .. إنما يكفي في هـــذا الموضـــع الحديث عن (القومية العربية) وحدها

لقد سيطر فكر القومية العربية ورجالها على المنطقة ما بين المحيط والخليج تدريجياً وبدرجات متفاوتة ، في نفـــس الفترة التي بدأت فكرة القوميات تلفظ أنفاسها الأخيرة المدمرة في الحربين في موطنها الأوروبي الأول ، وتفسح المجال أمام الرابطة العقائدية المادية في الشرق ورابطة المصالح المادية في الغرب

ولا تقاس الأفكار بشعاراتها ، بل تقاس بما تصنعه على صفحة الوجود البشري وفي صفحات الواقع التـــاريخي .. فما الذي أسفر عنه (الفكر القومي العربي) و(النضال القومي العربي) على مدى من الزمن يزيد على سبعين عاما ؟

لسان الواقع والتاريخ يقول إن نتاج هذا الفكر والنضال ورجالهما تمخض عن بضع وعشرين (قوميـــة) عربيـــة ، وعشرات من المشاكل المستعصية والقضايا الْمُعْضِلة ، تواجهها كل (قومية) على حدة ، أو مع بعضها الـــبعض ، ولا تكاد تجد لها حلولاً ولا منها مخرجا

وليهبط من شاء أو ليصعد مع هذا الفكر والنضال ، ابتداء من (ثورة الشريف حسين) إلى (ميلاد البعث العــربي) إلى (نكبات العهد الناصري) إلى (ميلاد الإحياء العربي) إلى (النظرية العالمية الثالثة) وحتى (القمة العربية العاشرة)

وليهبط من يشاء أو ليصعد مع هذا الفكر والنضال في مختلف جولاتهما الماضيات والحاضرات ، ابتداء من نكبات فلسطين المتتالية ، إلى حرب اليمن السعيد ، إلى إريتريا والصومال ، إلى نزاع الأشقاء البعثيين ، إلى ظفــار والــيمن الجنوبي والشمالي ، وحتى حرب الصحراء الغربية على ساحل المحيط .. ولن يجد الهابطون أو الــصاعدون إلاّ بــضعاً وعشرين (قومية عربية) ، قد يسهل توزيعها بين شرقي وغربي ، أو رجعي وتقدمي ، أو اشتراكي ورأسمالي ، أو ثري وفقير ، أو مستسلم وصامد ، أو غير ذلك من مختلف التسميات والتقسيمات ، ولكن .. هل يمكن أن تجد بينها قاسماً (فكرياً ونضالياً) حقيقياً مشتركاً ، وإن اجتمع الملوك والرؤساء والسلاطين عشر مرات متواليات خلال بضعة عــشر عاما ؟ ..

قضية الصحراء الغربية نموذج واحد يتجلى فيه الواقع المؤلم بعد سبعين عاماً من الفكر والنضال تحــت شــعارات (القومية) ، في صورة من أشد الصور إيلاماً لكل عربي مخلص .. فالمخلص لا يشتري الشعارات المرفوعة ، إنما يدمى قلبه مع منظر الدماء التي تسيل من جراح أهل البلد الواحد على أيديهم بعد أن تركهم الاستعمار وشأنهم ..

وليقل من شاء أن يقول ، إنها المصالح الاقتصادية في مناجم الفوسفات في ساقية الــذهب ومنــاجم الحديــد في تندوف ، أو إنها المطامع السياسية في رغبة كل طرف أن يمد نطاق نفوذه إلى أوسع مدى تصل إليه الدماء المراقة ، أو إنها (قضية تقرير مصير) وكلُّ شعوب المنطقة محرومة من حقّ تقرير المصير ، أو إنّها (المكانة الداخلية) لكلّ زعــيم في بلده ، بعد أن جعل من قضية الصحراء (القضية الوطنية الأولى) التي تجمع حوله الصفوف والأصوات ..

لا يبقى من كل هذه المقولات في أذن المخلص وقلبه إلاّ صوت أم تبكي ابنها ، وزوج تنعي زوجهــا ، وطفــل حائر يسأل عن أمه وأبيه .. ولا يبقى في عين المخلص من سائر الشعارات المرفوعة والمصالح الظاهرة والخفية إلاّ منظر شظية تودي بحياة الأخ أمام أخيه ، والرصاصة تنطلق من يد الأخ إلى صدر أخيه ..

إنّ مأساة الصحراء الغربية التي أسقطت من جدول أعمال مؤتمر القمة العربي العاشــر في تــونس ، كالمأســاة الفلسطينية- اللبنانية التي اكتفت القمة بمساحيق تجميل وضعتها على وجهها الدامي ، كمأساة تحرير الثروات العربية من التبعية الأجنبية التي مُسخت من قبل ، وأجّلتْها القمةُ الأخيرة إلى قمةٍ قادمة .. إن جميع هذه المآسي وسواها مما لم يجد ذكراً في تونس وهو يعصف بالوجود (العربي) كله ما بين المحيط الهادر والخليج الثائر .. لتعكس في صفحة الواقع والتاريخ إفلاسَ الفكر المسيطر بمختلف صوره .. وإفلاسَ أصحابه .. أرادوا -إذا صدقت النوايا- توحيــد العــرب ففرقوهم أحزاباً متصارعة ودولاً متنازعة وشعوباً منكوبة ، وأرادوا تقدم العرب فأخروهم فقراً فاحشاً وغنى مبطــراً

وجهلاً وتجهيلاً وقمعاً فكرياً وانحلالاً خلقياً ، وأرادوا حرية العرب فقهروهم أتباعاً للشرق وأتباعاً للغرب وسجناء في أغلال أنظمةٍ مفروضة ، أخشى ما تخشاه أن يتحرر العرب حقاً وصدقاً فيحققوا ما يريدون هم لا يُفرَض عليهم

وما كان إفلاس ذلك الفكر وأشياعه على مختلف ألوانهم ومشاربهم لأن العرب ليسوا عرباً ، بل كـــان العـــرب عرباً من قبلهم وسيبقون عرباً من بعدهم .. ولكنهم عرب مسلمون وما اجتمعوا يوماً –وعاش معهم غير المسلم آمناً محفوظ الحقوق- إلاّ على الإسلام وبالإسلام .. عرب مـــسلمون ، لا شـــرقيون ولا غربيـــون ، لا رأسمـــاليون ولا اشتراكيون لا ملكيون ولا جمهوريون .. لا هم بالأتباع للطاغوت الغربي واستعماره القديم والحديث ولا هم بالأتباع للطاغوت الشرقي وأطماعه القديمة والحديثة ..

عرب مسلمون ، لا عرب مسيرةٍ خضراء ، ولا كتاب أخضر ، ولا ميثاق ناصري ، ولا حزب بعثي ، ولا حكم ماركسي ، ولا طغيان فردي ، ولا نظامٍ يتوارى وراء اسم الإسلام لأهداف حمراء ماركـــسية أو أهـــدافٍ ســـوداء صليبية ، أو لغايات دنيوية ومصالح ذاتية

عرب ولدوا عرباً ، في أرض عربية .. مسلمو الهوية والجنسية ، كتابهم القرآن به يفكرون ، ورسالتهم الإسلام به يتميزون ، وطريقهم طريق محمد عليه الصلاة والسلام عليه يجاهدون وفيه عن الشرق والغرب يستقلون ..

وما دامت القمم العربية لا تصل إلى قمة الإسلام ، بل تبحث عن الحلول الوسطية بين بضعة وعشرين اتجاهـــاً ، بين شرق وغرب ، ويمين ويسار ، وملك ورئيس ، وحزب ونظام .. فستبقى القمم العربية في وادٍ والعرب المسلمون في واد ، وستبقى على هامش التاريخ حتى ينساها التاريخ ، ولكنّها لن تتمكّن أبداً مـــن تحقيـــق أهـــداف العـــرب المسلمين ، ولن تصل أبداً إلى حلّ مشاكلهم ، فمشكلة العرب هي فرقة الحكام في ألف سبيل وسبيل بعيداً عن سبيل العرب والمسلمين ، ولن تحقّق أبداً عزّة العرب ، فما عزّة العرب إلاّ بالإسلام ، هو الذي صهر وجودهم عبر التاريخ في بوتقة الوطن الإسلامي الكبير والأمة الإسلامية الواحدة ، وهو القادر بإذن الله ، على أيدي المـــؤمنين المخلـــصين المجاهدين ، أن يوصل العرب والمسلمين جميعاً إلى ما يتطلعون إليه من تحرّر ووحدة ، وكرامة وتقدّم ، وحقّ وعدالـــة .. ما زالت اجتماعات الملوك والرؤساء لا تصل إليها ، فهي في وادٍ سحيق وإن أطلق عليها اسمُ القمم .. ولن تصل إليها ، ما دامت لا تعرف من الإسلام المنـــزّل إلا ما يشبه إجراءَ تونس البلد المضيف ، إذ مُنِعَ فيها تعاطي الخمـــور لمدة عشرة أيام كاملة ! .. ثم تجهل تلك القمم أو تتجاهل قول الله عزَّ وجلّ :

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ... ﴾ [الحجرات : ١٠]

﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ... ﴾ [آل عمران : ١٠٣]

﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴾ [المائدة : ٥٥]

﴿ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤]

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠]